لا يمكن الحديث عن المكون الفلسطيني في الأردن دون التطرق لوصف "البلجيكي" المستخدم في معظم الأحيان للإساءة إليه. لا يوجد إجماع على منبت هذا الوصف حتى اللحظة على حد علمي وربما سيبقى المنبت سراً إلى الأبد، ما لا نختلف عليه هو أن الوصف يُستخدم بالعرف العام للإساءة، وأغلب الوقت يتعلم الفرد أنها مفردة تُستخدم للإساءة قبل أن يعرف أي شيءٍ عن أصلها.

من يقرأ هذه المقالة ولم يقطن بنفسه في الأردن لوقتٍ كافٍ يؤهله لمعرفة أثر الكلمة وكيفية استخدامها قد يصعب عليه معرفة موقعها في القاموس العرفي، لا لتعقيد فيها وإنما بسبب الحجاب المعرفي حول أصلها، لأن استخدامها يتذبذب مع تذبذب المنبت في البال وتتفاوت درجة الإساءة بين الأصول المختلفة، بعضها مهين جداً وبعضها يسعى لتصوير -أو ربما تذكير- الفلسطيني الأردني بأنه غريب. إلا أن هذا الحس من الغرابة كما سأزعم هو الحس الذي سيصحب الفلسطيني في كل مكان والذي سيتضخم إلى أقصى الحدود قريباً.

بالنسبة للتذبذب قد يستخدم الوصف أحدهم بحدية لكن المتلقي قد يأخذه بمعناه الفاتر، من أسوأ المنابت التي سمعتها عن الكلمة هي أن الحذاء الذي كان يرتديه الجنود الأردنيون هو بلجيكي الصنع، ثاني أسوأ القصص هي أن الحذاء الذي ارتداه الفدائيون هو كذلك، أي بأسوأ التصورات هذه الكلمة تعمل لشتم أحدهم بوصفه بالحذاء مع تعيين صاحب الحذاء. في المقابل هناك أصول فاترة مثل أن دولة بلجيكا كانت تدعم حقوق الفلسطينيين -لا أرجّح هذا- أو أن الخيم في المخيمات الفلسطينية كانت من صنع بلجيكي، وهذا قد يعني أنها إساءة طبقية ممزوجة بإقصائية، تذكير الشخص بأنه يعيش في خيمة يحمل هذين المعنيين ويصعب الفصل بينهما.

قد يصعب الآن أن أحدد السيناريو التالي أول انتشار المصطلح، على فرض أن نوعاً من الإدراك الجمعي كان حاصلاً حينها -وهو فرض ليس بتلك القوة نظراً لأن التواتر لم ينقل لنا المعنى- لكن من السهل أن نفترض سيناريو معاصر: لنفترض أن شخصاً ما يستخدم الكلمة بمعنى الحذاء وأنه قالها لشخصٍ يظن أنها إشارة لمصنع الخيمة التي عاش فيها جده. يمكننا مباشرة إدراك فقدان الكلمة لحمولتها الاستفزازية في الطريق بينهما، نستطيع أيضاً تخيل السيناريو العكسي، في الحالتين وفي كل حالات الكلمات يجب أن ندرك أن الكلمة في هذا السياق صار لها معناها المستقل شأنها شأن أي شتيمة، فالشتائم بالعادة لا تحمل سلامة لغوية ومعنوية في ذاتها. كي تتضح هذه الفكرة لنتذكر شتائم أخرى، ومراعاة للقارئ لن أذكر مثالاً ما، ثم لنتخيل لو أن أعجمياً جاء ليتعلم اللغة. هناك عدة شتائم قد يتعلمها دون أن يدرك حدتها وربما قد يظن أنه يتعلم كلمات دون ظلال استفزازية، لكن معلمه، أو تجربته الأولى عندما سمعها أو استخدمها، سيوضحان له أن تلك الكلمة أو تركيبة الكلمات لا يحبذ أصحاب اللغة سماعها.

حتى مع كل هذا في البال لا تنحدر كلمة "البلجيكي" إلى شتيمة بكل ما تحمل الشتيمة من شبكة توقعات اجتماعية، أي أنها على عكس معظم الشتائم لا تستخدم بطريقة قد تدفع للمشاجرة بشكل تلقائي ما لم يكن هناك سياق عدائي واضح يفرّغ شحنتها السلبية، فقد تعددت استخدامات الكلمة وأضحت في بعض السياقات فقط للتعريف. وهذا منطقي لو نظرنا إلى طول كلمتي "أردني فلسطيني" أو "فلسطيني أردني" للإشارة إلى أصل الفرد، من الأسهل أن تسأل ما إذا كان بلجيكياً. كما أنها في بعض الدوائر قد صارت مثل كلمة زنجي بأبعادها الأمريكية العنصرية، أي أن أصحاب الأصول الإفريقية في أمريكا قد يستخدمون الوصف بينهم للتحبب أو للإساءة التي لا تفرط في الاستفزاز كما هو حال الشتائم المتبادلة بين الأصدقاء. هذا لا يقتصر على الأصدقاء من الأصل الفلسطيني، قد تكون الدلالة بشكل متناقض تشير إلى قبول الآخر كلياً، أي عند "السماح" لصديق أردني باستخدامها أو عندما يستخدمها الفلسطيني أمام الأردني موحياً بذلك أنها لا تزعجه، وهي بالفعل قد فقدت معظم شحنتها السيئة مع الوقت إلى حد يجعلني أشك بأنها حملت شحنة كبيرة أصلاً، خصوصاً لأنها في نهاية المطاف عبارة عن جنسية موجودة ومن دولة ليست مذمومة أصلاً، بل هي في معظم المعايير أفضل من الدولة الأردنية. لذلك هناك انقطاع في المعنى المعني عند استخدامها لو تخيلنا فلسطينياً لا يكترث بهذه الكلمة يسمع عنصرياً أردنياً يظن أنه يوجّه أسوأ إهانة مثل الطفل الذي يحاول استفزاز والده ولا يلقى سوى ابتسامة بالمقابل.

وحّد تسد

لكن معاني الكلمات تتغيّر مع الوقت، سأبدأ بنفسي وأذكر أنني كنت ممن يستخدمون الكلمة بشكل اعتيادي تعريفي، وفي بعض الأحيان كانت بالفعل للإساءة للمكون الفلسطيني الأردني لكن بما أنني أنتمي إليه فهناك سقف للإساءة. لكن بعد بدء الحرب والضوء الأخضر الذي أعطي للعنصريين في الأردن صرت أتردد عند استخدامها، وهذا يذكرني بهذا المقطع من محاضرة لسلافوي جيجيك.

قبل الحرب وفي كل حين تتكرر مواضيع النقاش على تويتر، حتى كان التكرار بذاته موضوعاً مكرراً -هذه الموسمية للأسف انتقلت للحرب أيضاً-، وفي المواسم السابقة جرت العادة أن تشتعل النقاشات "العنصرية" من تغريدة عنصرية، لكن النقاش سرعان ما يتحول إلى حالة غريبة من جلد الذات على ضفتي الحوار لإعلام الضفة المقابلة بأن العنصرية لا مكان لها. بالنسبة لي كان هذا الموسم مبتذلاً لكن على أي حال كانت التغريدات التي تشعل النقاش تافهة ولم تحمل قدرة استفزازية كافية لقطبية في النقاش. يمكننا تخيل دائرة في المنتصف وهي الدائرة الأكبر وفق ملاحظتي الشخصية، في هذه الدائرة نجد الحسابات التي كانت تجلد ذاتها لتعلم محطيها بنبذها للعنصرية. لكنها لم تكن الدائرة الوحيدة، على طرفيها تواجدت دائرتان صغيرتان من المنبتين، في كل منها حسابات أولئك العنصريين حقاً إضافة إلى غير المكترثين بالموضوع وأولئك المحبين للجدل والفوضى.

أما بعد الحرب لاحظت أن الحسابات التي أصبحت تبالغ في عنصريتها في أسوأ توقيت -أو ربما في التوقيت المناسب من وجهة نظر عنصرية- لم يعد يقابلها ذاك النوع من الردود، نعم لا زالت الردود الجمعية تدعو لدفن العنصرية لكنها لم تعد تنتهج جلد الذات وسيلة، كما أنها دائرة باتت تصغر حجماً. بدلاً من ذلك صار الكثيرون يتجاهلون ما يحصل أو يتكلمون بدبلوماسية مفرطة عن ضرورة "وأد الفتنة" ويبدو لي أن الإساءات المتبادلة تنال من المعظم ويبرز هذا في النبرة التي يمكن أن نستشفها من الكلمات المستخدمة.

هناك الكثير مما يمكن ويجب قوله عن العلاقات بين الشعوب العربية في هذه الحرب وخصوصاً بين أبناء الشعب الفلسطيني ذاته وهو يواجه إحدى أصعب المحن في تاريخه، ولكن هذه المقالة على الرغم من إطالتها في الإشارة إلى هذا الوصف المسيء ليست معنية بكل تلك العلاقات ولن تسهب بالحديث عن المشاجرات الشعوبية على الإنترنت (يمكن للقارئ المهتم أن يقرأ جزئية "اقتصاد المعاناة والغضب" في مقالة "النظرة الضدية للتقنية" من سلسلة الطواف في فلك الواقع).

الهدف هو الإشارة إلى حقيقة أعادتها الحرب إلى الواجهة بما يخص حالة الفلسطيني في كل مكان، العلاقة المضطربة بين الفلسطيني وغيره باتت تتذبذب بشكل عجيب في كل مكان وفي كل اتجاه، في سياق الشتيمة هذه صار بيّناً أن الفلسطيني لم يعد يشعر بضرورة التمسك باللحمة الوطنية في دولة تعطي العنصريين ضده ضوءًا أخضراً وتعتبر كارثة شعبه مسألة "خارجية" لا تستحق تحركات جذرية.

علاوة على ذلك هناك أمثلة في كل الدول، قد تجد في عاصمة أوروبية أعلاماً فلسطينية ترفرف في احتجاج وفي المقابل تجد شرطة وحكومة عنصرية تقمع المتظاهرين وتصدّر الأسلحة للكيان الصهيوني كي يستكمل جرائم الحرب في غزة. وقد تجد حكومة أجنبية تمنع سفينة أسلحة من التوقف في أحد موانئها ثم تسمح لها حكومة عربية ويسارع الشعب بتبرير هذه المساهمة الرسمية في الحرب على شعبنا. هذان مثالان مبسطان واختزاليان لكنهما كفيلان بالإشارة إلى أن العلاقات في طور انتقالي وأغلب الظن أن صورتها النهائية سترتبط بتبعات الحرب لكنها علاقة نساهم جميعاً في رسم تفاصيلها. ما لا يمكن استثناؤه أثناء رسم تفاصيل العلاقات هو محاولة تذويب الفلسطيني في كل الدوائر الأخرى التي كانت جارية مع الزمن وأثر الطوفان على مكانة الفلسطيني في كل مكان.

القارئ للسلسلة الكاملة يدرك أنني سأقول هذا لأنني أسعى في رسم التفاصيل إلى الحفاظ على الهوية الفلسطينية لكن ما أعنيه هنا هو أن هذا المسعى قد يحصل بطريقة ملتوية، ولهذا أنبّه القارئ إلى أن جهدي ينصب في جعل النقلة تحصل تحت شيء من السيطرة لا رغماً عنا. الفلسطيني في كل مكان كان غريباً لكنه قبل الطوفان كان واحداً من الغرباء، أما اليوم فهو قد يصبح *الغريب* وقد يستمر الاغتراب لفترة يصعب التنبؤ بطولها لأنها ترتبط بمجريات الحرب، وبما أن الحرب طالت بما فيه الكفاية لقد صارت بعض الأحداث التي يجب التعاطي معها أحداثاً ظنَّ الفلسطيني أنها ستأتي بعد الحرب لكن الحد الفاصل لم يعد واضحاً كما كان في البداية. لا أعني أن الفظاعة توقفت أو خفّت فالعدو يراكم الفظاعات ويحارب بشكل مسعور من اليوم الأول بعد أن داس المقاومون على رأسه وفي كل مرة يدوسون رأسه يزداد سعاره. ما أعنيه هو أن العداء مع الكيان لم يتوقف في أي لحظة منذ نشوئه وحتى زواله لكن هناك فترات تقل فيها الفظاعة شيئاً ما، وبما أن الفظاعة في هذه الحرب فاقت كل التوقعات وبما أنها كما أظن تشير إلى اقتراب زواله فهي أيضاً تعني أن الحد الأدنى من الفظاعة ارتفع أيضاً أي أن هذه "الحرب" قد "تنتهي" دون أن تتوقف الفظاعات لذا لا يمكن أن نطبّع الحد الجديد من الفظاعة.

في هذه المرحلة بدأت العلاقة بين الفلسطيني وغيره خارج دائرة العداء المباشر بامتحاناتها الخاصة، كما أن بعض الأجوبة السابقة لأسئلة الهوية لم تعد نافعة إذ لم يسبق في تاريخ القضية أن تتعاون حكومات عربية وإسلامية بهذا الشكل الفظ مع عدوه الوجودي، مما يجعل بعض الاعتبارات العروبية والإسلامية أقل وضوح في عين الفلسطيني. من الجيد أن هذا الموقف المنحط أخلاقياً خلق حساسية بين الشعوب وحكوماتها ولم يحصل إجماع على كراهية الفلسطيني شعبياً. بطريقة ما تمت إزاحة التوازن في هذه الحرب، الحكومات لم تعد تقف مع العدو وقفة اقتصادية أو سياسية محضة، بل هي وقفة معسكرة وفيها درجات من التنسيق التي لم تخطر على البال في السابق، هذا العدو صار يملي على الحكومات أن تعامل الفلسطيني في كل مكان بما يناسب فكرة إبادته، بالتالي العلاقة مع كل الحكومات سترسمها درجة موافقة الحكومات على تلك الأوامر ودرجة رضا الشعوب ودرجة تأثير المكونات الفلسطينية على ذلك.

لكن المكون الفلسطيني خصوصاً هو المعني الأول لأن الأوامر هي في الإفراط في ظلمه وإسكاته، وبما أن الشعب هذا أثبت أنه بالمجمل لا يخضع بسهولة فلا يمكن الحديث عن أي سيناريو يسكت المكون الفلسطيني سكوتاً مطلقاً في أي مكان، سواء بالعموم كما هو حال أي مكون يتعرض للظلم أو بالخصوص لأن هذا الشعب لديه تاريخ ورصيد ثوري يجعله عصياً على الخضوع. الخطر الحقيقي في نظري أثناء إعادة تشكل العلاقة في أن مدى القهر ونزع الإنسانية أخذت تتسرب إلى النقاشات الفلسطينية-الفلسطينية وبدأت البغضاء تنتشر، بعضها مبرر بسبب الأخطاء والخطايا وبعضها لا مبرر له وهو ينبع من عدم استيعاب لخطورة المرحلة على الجميع. قد يظن القارئ أن الخطورة البارزة في الحرب على غزة واضحة للجميع ولا داعي للحديث عن أي خطر قادم، وهي بالفعل خطورة لا تفوقها خطورة، ما أعنيه هو أن هذه الخطورة بؤرتها في غزة لكن ظلالها ممتدة أينما امتدت أذرع الصهيونية والمطبعين معها والمنتفعين منها، لا أقول أن القادم أخطر بل هو خطوة لاحقة في تفاعل تسلسلي.

كارثية لوم الضحية

ما هي دلالة عدم التنبه لما هو قادم؟ في هذه المقالات أتحدث بالدرجة الأولى عن الشتات الفلسطيني لذا لا أعني بانتقادي الفلسطيني في أرضه الطبيعية حتى لو كان هناك انتقادات مشروعة ومطلوبة لكن بدلاً من ذكر انتقادات تخصهم سأشير إلى المشكلة التي باتت تعم الشعب أينما كان. لقد مرّت سنة كاملة على الحرب ولم يبدأ الشتات بالتحرك بدرجات أعلى من التنظيم والتنسيق، وهي درجات مطلوبة منهم ومن الفلسطينيين على الأرض الفلسطينية. كما أن الشعب في حالة السخط بدأ يتخبط في تفسيراته ويلوم نفسه، هناك شرائح تلقي اللوم على غزة بسبب مقاومتها، ومن غزة هناك من يلوم الآخرين على عدم تحركهم وكأن العدو القادر على ارتكاب كل هذه الجرائم ليس كياناً يرتبط بنظام عالمي يظلم الشعب بأكمله. البعض يتحدث وكأن الشتات يملك تنظيماً مسلحاً قادر على قلب المعركة لو تحرّك ولكنه يرفض التحرك العسكري لسببٍ ما، ويسهب أمثال هؤلاء بالتفسيرات العجيبة والمبالغة بتصوير قدرة الشتات على التأثير العسكري.

علي أن أصرّح وأوضح الكلام كي لا يساء فهمه، لنأخذ بعض المراحل السابقة من الجرائم التي كانت تقع على الشعب الفلسطيني، في لبنان مثلاً حصلت مجزرة صبرا وشاتيلا، وفي الوعي الجمعي يدرك الشعب الفلسطيني أن هذه المجزرة سببها بالدرجة الأولى هم المجرمون أنفسهم، الكتائب والكيان. بالطبع يمكن الحديث عن مسؤولية الفصائل الفلسطينية في ترك لبنان لكنها خسارة على الجانبين، إذ خرجت الفصائل رغماً عنها. في غزة سبق وذكرت أن البعض يلوم حماس على الطوفان ومن السهل فهم بطلان هذه التهمة. ماذا عن مخيم اليرموك في سوريا؟ ألم يعاني الفلسطيني هناك أيضاً؟ لكن هل يربط الشعب المعاناةَ بخروج حماس من سوريا أم يحمّل المجرمين المسؤولية الأولى؟ طبعاً هناك اختلاف حول هوية المجرمين لكن بغض النظر هناك نوع من الاتفاق على أن اللوم لا يقع على حماس.

مقابل هذه التهم هناك تهمة عكسية تجاه الشتات، بأن ما يحصل في غزة هو بسبب تقصير الشتات، لقد سمعت مثل هذه التهمة مراراً وتكراراً لكنني لم أجد وضوحاً في تفاصيلها، في كل الحالات السابقة كانت التهمة تتوجه لتنظيمات بعينها، في هذه الحرب جاءت بدعة لوم الشعب بشكل جوهري ومطلق، وبالعادة يصحب التهمة بعض الافتراءات عن أسباب التقصير.

القصد من الكلام هو أن تقصير الشتات حقيقة لا أنكرها، هي حقيقة دفعتني لكتابة ما يملأ كتاباً أو اثنين منذ بدء الحرب ودفعت غيري لفعل أكثر بكثير من الكتابة وستدفعنا جميعاً إلى حياة لم نكن نتخيلها قبيل الحرب. هذه الحقيقة التي لا خلاف عليها لا تعني بالضرورة أن اللوم في المجازر يقع على كاهل الشتات، ولا أظن أن الفكرتين تقترنان كما يصوّرها البعض، والفصل بينهما يقع عبر حجة بمستويين.

المستوى الثاني هو ما ذكرت من تناقض مع تصوراتنا لحلقات سوداوية سابقة وكذلك مع أفكار منتشرة، مثل المبالغة بتصوير القضية كأنها قضية إسلامية، إذ لو كانت إسلامية بحتة لماذا نتهم الفلسطيني كأن عليه مسؤولية إضافية؟ لماذا تكسب الاحتكارية الإسلامية بطولات من القضية ثم تتخلى الأمة عن واجباتها ويلام الفلسطيني حصراً؟ على أي حال لقد وضحت هذه التناقضات في الجزء الأول، الأهم هو أن ندقق المستوى الأول وهو في الفكرتين بذاتها والحقائق حتى اللحظة; الشتات بتعريفه يعني مجموعة متفرقة لا تواصل ولا تنسيق بين أفرادها حتى لو ارتبطت بالهوية والتطلعات، وبما أن مجموعات من الأحرار تفوق عددياً هذه المجموعة تحركت لوقف الإبادة ولم تتمكن من فعل ذلك، ما هو المقياس الذي يمكننا أن نبني عليه افتراض أن المسألة كانت لتختلف لو تحرك الشتات أيضاً؟

من هذا المستوى أظن أن الاستنتاج المنطقي يتفرع إلى ثلاثة فروع قد تلتقي في آخر الطريق. الشق الأول هو في التفكير بأن التحركات لم تنفع لأن النصاب ليس عددياً أصلاً، مما يعني أن المطلوب هو تحركات تختلف بطبيعتها، المطلوب ليس أعداداً أكبر يقومون بالحراكات المألوفة وبالتالي حتى لو زاد العدد قليلاً بانضمام المزيد من الشتات في أنحاء العالم لما تغيرت الحالة. -من هذا المنطلق كتبت مقالة الأمل بين العمل والشلل وأدعو القارئ للتفكير بجدية خارج الصندوق- ولكن هذا الكلام يمسح الفروق الجغرافية، نعم في الدول الغربية لا حاجة لأن تتحرك الأقلية الفلسطينية بينما التعداد في الأردن قد يعني أن تحركاً أوسع هو المطلوب وقد يعطي نتائج أفضل، هذه النتائج لا نستطيع أن نبت فيها فقط عبر الخيال لذا أفضّل الفصل بين فكرتين كي نتعاطى بواقعية مع الحاصل. الفكرة الأولى هي أن المكون الفلسطيني في الأردن خصوصاً عليه مسؤولية أكبر والفكرة الثانية هي أن المزيد من الاحتجاجات التي تحمل نفس الشكل لا تعني بالضرورة ضغطاً كافياً على الحكومة.

الفرع الثاني هو أن المكون الفلسطيني مهم لنجاح هذه التحركات لشيء مميز فيه، لكن بما أن التميز ليس عددياً فالمسألة تحتمل أن يكون التميز في المكانة، أي أن الفلسطيني عليه مسؤولية خاصة وأن الأحرار الصادقين في دعمهم سيحترمون هذه المكانة بدلاً من الإسناد المتعالي الذي يعامل الفلسطيني كأنه لا يدرك مصلحته، وهذا التعالي موجود بكثرة لكن معظمه مقنّع وقد يخفى عن الفلسطيني نفسه، يمكن الفصل بين الأحرار الصادقين وبين الانتهازيين أو الواقفين معنا بالصدفة بمعاينة مخاطبتهم للفلسطيني الذي يخالفهم لا فقط الذي يتفق معهم. (أود التنويه إلى أن الخلافات الفلسطينية-الفلسطينية على المواقع يستغلها الأشقاء العرب لغسل عار حكوماتهم، الخوض في تفاصيلها بحاجة إلى حديث منفصل لكن يكفيني هنا أن أنوّه إلى الحذر المطلوب في النقد الذاتي لأن اللغة الجامعة صارت لغة فاضحة) الشيء المميز قد يكون أيضاً الاستعداد للتضحية وتقديم تضحيات تفوق ما قد يقدمه الآخرون، وهذا التأويل هو ما يلتقي مع الشق الأول حيث أن المطلوب هو حراكات جريئة لن يُقبِل عليها غير الفلسطيني، المسألة بحاجة إلى تفصيل وتفصيل لكن المقالة ليست تكتيكية.

الفرع الثالث يرتبط بالوقت، نعم لم تتمكن الحراكات الشعبية في العالم من وقف الحرب المباشرة لكن أغلب الظن أن أثرها سيأتي لاحقاً، هذه الاحتمالية الحلوة والمرة لا يمكننا سوى السعي نحو تحقيقها آخراً لكن يصعب القياس كثيراً عليها الآن. ما يجب فعله هو البناء على الحراكات الموجودة بدلاً من التركيز على الجانب المر الذي أخّر النتيجة أو بث الإحباط والعدمية الحراكية. أفضل مثال على هذا هو ما حصل مؤخراً عند إصدار المحكمة الدولية مذكرات اعتقال للضيف ونتنياهو وغالانت، المذكرة بحق قائدنا لا تعني الكثير فهي امتداد لنفس المنظومة التي تدين شعبنا على كل محاولات المقاومة الفعالة. الجديد هو مذكرات اعتقال قادة العدو، البعض يقلل من أهمية هذه التطورات لأنها لن توقف الحرب مباشرة لكن هذا التفكير قصير النظر، وكأن حربنا مع الكيان ستنتهي فقط بانتهاء هذه المعركة. المهم من ذكر كل هذا هو أنني عندما كتبت مسودة المقالة ونشرتها قبل أيام لم يخطر في بالي أي مثال ثم صدرت المذكرات مما دفعني إلى إعادة النظر في المقالة.

وهذا الفرع أيضاً قد يلتقي في آخر المطاف مع ما سبق، عندما تحدثت عن النقلة التي أراها حاصلة لا محالة وعن ضرورة السيطرة عليها عنيت هذه المسألة، من المنطقي أن افترض أن مقالاتي هذه لن تجد أي أصداء في أي وقت قريب مما يعني أن النقلة في العلاقات ستحصل رغماً عن الشتات، لكنها بشكل طبيعي ستدفعه إلى هذه الاستنتاجات، سيكتشف الفلسطيني في كل مكان بطريقة أو بأخرى أن النظام العالمي الصهيوني لن يتركه بشأنه مهما فعل، المطلوب منه هو خضوع تام ومطلق، وبهذا سيتقلد مكانته المميزة.

مما سبق أرجو أن يكون القارئ قد فهم ما أرمي إليه عندما أتحدث عن خطورة إلقاء اللوم على مكونات الشعب خارج التنظيمات بدلاً من التركيز على الوسائل للتنظيم. المسألة أخطر وأهم من أن تنحصر في عنتريات العرب أو استعراضية الإنترنت وهي ليست مسألة مرتبطة بمراعاة المشاعر أو البكاء على التعميم، المطلوب هو ليس أفعالاً شكلية لنرفع العتب وإنما استراتيجية ترتقي للمسؤولية الشعبية.

البلجيكي في كل مكان

أختم المقالة بالحديث عن فكرة التنظيم وعن صعوبة التنسيق عبر الحدود لكن على الأقل يجب أن ينمو حس وحدوي بين أبناء الشعب وخصوصاً الشتات لأنه قد "يعاشر الغير" ويذوب في دوائر اختارت صف الكيان. الحاصل حتى اليوم هو نوع من المناطقية، بعض الفلسطينيين في دول الخليج يذمون المحور وبعض الفلسطينيين في المحور يذمون الدول النفطية، قد يبدو للوهلة الأولى أن التكافؤ كاذب بين المثالين وبالفعل لا تجوز إهانة المحور الوفي والباسل بتشبيهه بدول الخليج النفطية المطبعة مع إبادتنا، لكن ما أعنيه هنا هو أن الفلسطيني بحد ذاته لا يختلف في الحالتين إذا ذابت هويته في محيطه بدلاً من أن تتبلور وتفكر بجدية بمد الجسور لترى أبناء شعبه بعين الرحمة ومراعاة كم الظلم الذي وقع عليه وأن تسعى لتقريبها إلى موقعها الجيوفكري -إن صح التعبير-.

بما أنني أميل إلى التفكير الواقعي يجب أن أشير إلى أن هذه المناطقية شيء طبيعي إلى حدٍ ما وكانت منطقية مسبقاً قبل أن تصرّح بعض الدول العربية بعدائها لشعبنا، على أي حال التنسيق يجب أن يأخذ هيئة تتعاطى مع الواقع كما هو وألا نسقط مرة ثانية في الأوهام الربيعية التي توحّد المقامات وتتوقع تحركات متوازية في كل مكان. هذا التنسيق بحاجة إلى مقالات أخرى وبصراحة أظن أنه يحتاج إلى جهد جمعي خصوصاً بين المثقفين، بدلاً من أن يتحفونا بمقالات تقيّم المحور أو التنظيمات الفلسطينية، من الأجدر بهم أن يتحدثوا عن واقعهم المباشر وعن مواقعهم في الشتات. أنا لا أحمل أي صفة تنظيمية لأملي على الجميع صورة التنسيق لكن أستطيع أن أدعو إليه وهذا هو الهدف الأساسي من هذه المقالة.

ما يمكنني قوله مباشرة -قبل أن يلبي أي مثقف هذه الدعوة التي لا أظن أنها ستلقى آذاناً صاغية- هو أن هناك حد أدنى من التنسيق يتطلب عدم تعارض الجهود، وهذا الحد يعني أن مسؤولية الفلسطيني في الدول النفطية ألا يتجرأ على من يقف مع شعبه مثلاً، أي ألا يقف الفلسطيني ضد أي جهد في مصلحة قضيته. كما أن هناك أفخاخ تكنولوجية بكل معاني الكلمة يجب التنبه لها، منها الإفراط بالتركيز على منطقة غير منطقتك كما ذكرت، ومنها أن تنحصر القضية بمواقع التواصل وما حصل من مضيعة الوقت على الكثير من الحسابات المشبوهة وعدم اتقان تكتيكات الحرب الإعلامية التي تتضمن عدم الإفصاح عن كل ما يجول بالبال أو عدم المبالغة في التعامل مع الإشاعات، ومنها أن ننجر إلى الوقوف مع جماعات أخرى ضد شعبنا مهما كانت. يظن البعض أن الانتقادات الموجهة لشعبنا قد تكون صحيحة موضوعياً لكن كيف لمعظمها أن يكون كذلك عندما تركنا الجميع تحت الظلم طوال هذا الوقت؟ الموضوعية يجب أن تأخذ بالحسبان كل الظروف والمتغيرات، ومن هذه المتغيرات مواقف العرب كلهم بلا استثناء والدعم اللا محدود من الغرب وهذا لوحده ينفي معظم الاقتراحات التي تصوّر التحرير كأنه يسير أو أن هذه الحرب جاءت للتحرير الكامل. كيف يكون النقد موضوعياً إذا صدر فجأة في منتصف الحرب وبحنقة واضحة ومطالب لا ترتبط كثيراً بالواقع؟

المطلوب هو الموازنة بين إبراز هويتنا والتمسك بها وبهذا الشعب مع التركيز على قضية الشعب التي تخلى عنها بالفعل بعض منا وهم يقفون في طريقنا، بمعنى آخر وحدة الشعب هي المطلوبة لكنها ليست وحدة عمياء عرقية، الخونة ليسوا المعنيين عندما أتحدث عن الوحدة أو الشعب، لكن المبالغة بإطلاق تهمة الخيانة تفقدها معناها ويسهّل عليهم مهماتهم. المطلوب هو أن لا تطير كل هذه التضحيات في مهب الريح أو أن نرضى بأي شيء أقل من التحرير الكامل والثأر المتقن أو أن نستمر بالممارسات التي كثفت الكارثة. المطلوب هو أن نعود للتفكير بصفتنا أبناء شعب واحد.